القصص

من أساطير الإغريق

نهاية هرقل

للأستاذ دريني خشبة

١٢ — رحلة هرقل إلى الدار الآخرة

لم تكن محفوفةً بالمكاره هذه الرحلة إلى الدار الآخرة؛ فقد سلك هرقل سُبُلاً من قبل كان الموت يجثم له في كل خطوة فوقها، وكانت المنايا تتربص به، ثم تفر منه آخر الأمر، كأنما كان هو موتاً للموت، ومنيةً للمنية، وفناء للفناء

أسقط في يد حيرا حين عاد هرقل بتفاحات هسبريا، واستولى عليها الجزع حين رأت إلى التنين لادون مضرجاً بدمه، فوسوست في صدر يوريذوس أن يأمر البطل فيحضر له سيربيروس من الدار الآخرة!!

وسيربيروس هو ذلك الكلب الهائل ذو الرؤوس الثلاثة، الذي رأيناه يعدو في إثر بلوتو - إله الموتى - حينما زار هذه الدار الأولى ليخطف پرسفونيه، وهو أبداً يربض عند قدمي سيده الجالس فوق عرش هيدز، يقلّب في غيهب السُّفل أعينه الست، كأنها أنجم تحترق في فحمة ليل بهيم، وهو أيضاً أداة تعذيب في دار الأبدية، ينشب أظفاره في أرواح المجرمين، ولا يفتأ يكرع من دمائهم حتى يروى!

وكانت الحرية تشيع بالآمال في قلب هرقل، وكان هو قد برم بهذا الرق الأسود الذي كتبته عليه السماء؛ فانطلق يعدو إلى دار الموتى، وبين يديه طائفة من الآلهة تهديه وترشده؛ حتى إذا كان قاب قوسين من السُّدة القاتمة الدجوجية، ووجد سيربيروس مُقْعِياً يغط في نوم عميق، وإله الموتى مستلقياً يُقلب في حضنه القوي پرسفونيه الجميلة، انقض على الكلب فخنّقه حتى لا يعوي فتعاويه كلاب الجحيم كلها وتكون هنالك الطامة...! وانفتل من دار الظلمات وفي نفسه من الرحمة لهذه الأرواح الهائمة ما أسال دموع الحنان من عينيه الحزينتين!

وانخلع قلب يوريذوس حين لمح الكلب الهائل!

لقد كانت الظلماء تدجى في أشداقه فتكسف الشمس الوضاءة، وترد نور النهار المتلألئ ديجوراً يلج في ديجور!!

وكان الزبد ينتثر من أفواهه كأنه نَدفٌ يسّاقط من علٍ في ليلٍ عاصف!

وكان ذيله الطويل الضخم يتلوى ويتثنى كأنه ذنب هيدرا أو ذيل لادون!

وكان يعوي وينبح فيقلقل الجبال المجاورة، ويزلزل قصور أرجوس!

وانظر إلى الملك الجبان!

لقد قفز من عرشه مما ألم به من الهلع، وانطلق إلى مخزن الغلال المجاور فاختبأ في خابية عظيمة أغلقها على نفسه حتى كاد يختنق، وآلى لا يخرج حتى يعود هرقل بسيربيروس إلى هيدز!

* * *

وهكذا أصبح هرقل حراً، وألقيت عن كاهله هذه الربقة التي أذلته طويلاً، وتلفت حوله فوجد الحياة تتبرج كأنها غانية، ووجد كل شيء بساماً ضاحكاً يدعوه إلى اللهو والمرح، والأخذ بنصيب مما تفيض به هذه العاجلة من مباهج ومغريات

وذهب في رهط من أصدقائه والمعجبين به من الآلهة إلى الأولمب ليلقى أباه وليقدم له طاعته، وليرى هل يتوب عليه من غضبٍ لا يستحق منه كثيراً ولا قليلاً...

ولقيه أرباب الأولمب هاشين باشين، وأخذوا يتندرون

عجازفاته العجيبة التى انتصر فيهــا على سبع نيميا والأفعوان هيدرا ومحاربات الأمازون . . . . .

وأغرقوا فى الضحك حين ذُكر أطلس وما كان من أمر الحيوية !! . . . .

واقترح هرمز على الآلهة أن يصارعوا هرقل ويلاكموه ، ويباروه فى العدو والسباحة وألعاب القُوى ، لتتم بذلك بهجة لقائه ، وليعبروا عما يكنونه له من حب ، ويضمرون من إعجاب . فأقيم ملعب الأولمب الفخم ، وشيدت على جوانبه المدرجات العجيبة التى تتسع لألف ألف من الآلهة وأنصاف الآلهة وكبار المدعوين من عباد بروميثيوس[1]

وتم مهرجان الألعاب ، وحاز هرقل قصب السبق فى أكثر المباريات ؛ وكان هذا هو الأولمپاد[2] الأول الذى أخذ اليونانيون يحتفلون بمثله كل خمس سنوات

وتتابعت السنون . . .

ومر هرقل بقوم يبكون ؛ وقيل له إن أدميتوس[3] ملك تساليا مرض ، فتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود فى هــذه الدار الدنيا ، فأجيب إلى ما تمني ، بشرط أن يحل محله أحد أهل بيته إذا حضره الموت ، وهنا تقدمت زوجه المخلصة السستيس فضحت بنفسها كى ينجو بعلها من الموت ، وليخلد ماشاء له الخلود . وماتت الزوج الوفية فداء للملك . وينظر أدميتوس إلى ملكه الشاسع فيراه بغيضاً لا خير فيه ؛ ويكون فى حاشيته فيشعر بوحشة وانقباض كأنه يعيش فى صحراء ؛ ويقدم إليــه الطعام فلا يكاد يسيغه ؛ وترقص القيان بين يديه فيثرن فى نفسه الاشمئزاز كأنهن جِنَّةٌ تدمدم فى ظلام غابة . . .

ويبغض الدنيا . . .

ويود لو كانت زوجه الجميلة المخلصة إلى جانبه لحظةً واحدة وتتلاشى الحياة بكل من فيها . . !!

لذلك يبكى الملك ، ويبكى حوله شعبه الأمين !

ويذكر هرقل أنه وحده يستطيع أن ينفذ الى هيدز – دار الموتى – فيستنقذ ألسستيس من براثن الفناء ، ويردها معززةً مكرمةً الى زوجها المسكين فيهدأ قلبـــه ، ويرقأ دمعه ، وتستقر نفسه ، ويفيء الى أمر هذا الشعب الذى تكبكب حوله يعول وينتحب . . .

ونفذ البطل الى ظلمات الدار الآخرة ، وسأل الأرواح الهائمة فدلته على منامة ألسستيس ؛ فتغفّل حارسها الجبار وخنقه ، واختطف الفتاة الناعسة وفرّ بها دون أن تشعر به زبانية پلوتو وعادت الطمأنينة الى قلب الملك ، ورفرف السلام على المملكة

* * *

هرقل وأومفاليه

وذهب هرقل يذرع الأرض ، واشترك فى حملة الأرجونوت ضد السنتور[1] ، وانضم إلى الأغريق فى حصارهم الأول لطروادة ولقى رجلاً ذا خيلاء وكبر فقتله ظالماً ، وكان زيوس ينظر من علياء الأولمب ، فعبث وبسر ، وقضى أن يظل هرقل فى خدمة أومفاليه ملكة ليديا بضع سنين

هرقل وأمفاليه (تصوير موبان)

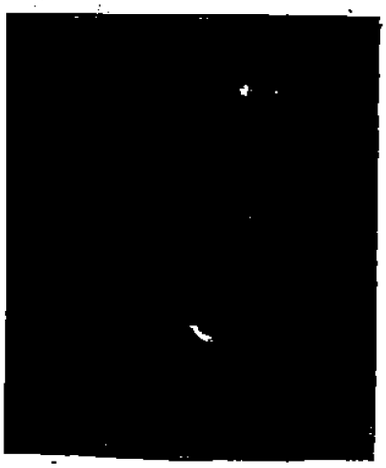

وتجهم هرقل ، ولكنه لم يكد يبدأ خدماته التافهة للملكة ، حتى راعه جمالها ، واستهوته مفاتنها ، وأحس للمرة الأولى فى حياته المشحونة بالمخاطر أن قلباً يتأجج فى قلبه يوشك أن يجعله ضراماً وحلاَ فى فمه ما مر من الذل ، وطاب ما كره من العبودية ، وود لو قضى الحياة فى ظلال هــذا الحب الأول مغموراً برضى الملكة ، سعيداً بما أفاء عليه جمالها من هناء ونعيم وبال . ولــكن الآلهة لم تقر بهذه السعادة فأرسلت بطلها لمآرب أخرى

(١) هو خالق البشر فيما تزعم الميثولوجيه — العدد ٩٩

(٢) الأولمپاد هو دورة الألعاب الأولمبية

(٣) أسطورة أدميتوس وزوجه السستيس وطرد أپولو من السماء من أبرع الأساطير الاغريقية وقد نعرض لها قريباً

(١) لهذه الحرب أسطورة طويلة آثرنا ألا نثبتها مخافة الاطالة

زواج هرقل

وطوّف هرقل فى أقصى الأرض حتى انتهى إلى كاليدون ، مملكة أونيوس ، والتى ابنته الناهد الهيفاء تجمع الزهور فى حميلة غناء . وكان قلبه قد نهل من خمرة الحب ، وكانت عيناه قد ثقفتا نظرات الغزل ، وكان لسانه قد انحلت عقدته من وحى الهوى ، فانطلق يلاعب الفتاة ويداعبها ، وينمق لها من الورود والرياحين باقات تتكلم بالشذى ، وتهتف بالخُضرة والحُمرة ، وتصافح الروح بالعبير الفياح

وأنِسَت ابنة الملك بهرقل واطمأنت اليه ، وبثها وبثته ، وتشاكيا ماشاء لهما الغرام الروى ، والحب الفتىّ ، والدمع المسكوب!

وعلم منها أن أخيلوس ، أحد آلهة الأنهار ، قد خطبها إلى والدها ، وأن الملك قد أجابه إلى ما أراد :

« فهل أسعد بأن تزيح هذا الكابوس عن قلبي ؟ »
« وتقف حائلاً بيني وبين الشقاء الذى يتربص بى ؟ »
« فنكون أهنأ زوجين ينعمان بلذة الحب ، ويرفلان »
« فى برد السعادة ، ويتغنّيان مع الطير ألحان الهوى »
« والحياة ! ! ... ... »(٢)

هكذا بكت ديانيرا إلى هرقل ، فهاجت فى قلبه نخوة البطولة وتحيزة المغامرة ، وأطلقت فى كل عضلة من جسمه المكتنز كهرباء الحماسة والاستبسال :

« قرّى عيناً أيتها الحبيبة ، فليس أيسر »
« على هرقل من حرب الآلهة . لقد صرعتهم »
« جميعاً فى حفل الأولمب ؛ وقد مر بى من المغامرات »
« ما ينخلع من بعضه قلب أخيلوس ... ... »(١)

واستأذن هرقل على الملك ، وحيا أحسن تحية ، ثم طلب يد ديانيرا . . . . وكان أونيوس يعرف من بأس البطل وعظيم قوته ما يعرف كل ملوك هيلاس وأمرائها ؛ وكان قد أجاب أخيلوس إلى خطبته وهو يعلم من سخط ابنته على هذا الزواج ما يعلم ؛ فلما تقدم اليه هرقل استبشر وقال : « ... ... لقد كنت يا بنى وعدت أخيلوس أن يبنى على ديانيرا ، وهو من تعلم فى الحول والطول والجبروت ، ولكنى مع ذلك لا أفضله عليك ، بل نجعل لكما يوماً تلتقيان فيه ؛ فمن يصرع صاحبه كان كُفؤاً لديانيرا »

وقبل هرقل ، ورضى أخيلوس ؛ واجتمع الناس من كل فج يشهدون الصراع العظيم بين الجبارين العنيدين . . . وكان كلٌّ واثقاً بنفسه ، لايخامره أدنى شك فى أنه فائز على صاحبه . فلما تقابلا ، ثار من حولهما النقع ، وكانت أنظار الناس كالمتصلة بسواعدهما بأمراس شِداد ؛ وبعد قليل أخذت الأرض ترجف من تحتهما ، وطفق الملعب يهتز بمن فيه من خلق كثير . . . وكانت ديانيرا تشرف من مقصورتها وتكاد تقص بريقها إشفاقاً على هرقل ، وكان هو كذلك ، كلما خارت قواه ، نظر اليها النظرة تتجدد بها روحه وتتضاعف مِرّته ويمتلئ قلبه بالآمال . . . . . وكان أخيلوس قد فطن إلى جبروت هرقل ، وكان يستطيع أن يتشكل بأى خلق أراد ، فجعل يتقلب من ثعبان ضخم الجثة ، إلى تنين عظيم الجرم ، إلى أسد بادى النواجذ ، إلى . . . ماشاء له سحره وقوة حيلته من أشكال وأوضاع . . : ثم انقلب إلى عجل جسدٍ ذى قرنين كبيرين ، وشرع ينطح هرقل ، وهرقل يتقيه ، حتى استطاع البطل أن يأخذ بقرنيه بكلتا قبضتيه ، وجعل يخبط برأسه الأرض فى عنفٍ وغل ، حتى كُسر أحد القرنين وفرّ أخيلوس من الميدان هارباً . . . لايلوى على شىء . . .

صراع هرقل وأخيلوس (تصوير جيد)

ودوى الملعب بالتصفيق ، واندلعت الحناجر بالهتاف ، وتدفق الناس نحو هرقل يحملونه على الأعناق . . وتقدمت ديانيرا فحياها البطل بقبلةٍ فردوسيّة خالدة ، مايزال صداها يرن على شفاه المحبين . . وتم العُرس . . . وانطلق هرقل بزوجه يجوب الآفاق . .

(١ــ٢) هذه السطور من سوفوكليس فى مأساته الخالدة « عذارى تراقية »

وحدث أن اعترضه نهر عظيم لم يستطع أن يعبره ومعه ديانيرا . فبينما كان يعمل فكرته كيف يقتحمه ، إذا سنتور عظيم يعرض عليه أن يحمل زوجه فيعبر بها إلى العدوة الثانية سالمة آمنة ، ثم يرتد فيحمله اليها كذلك ؛ وقبل هرقل ، ونسي ما كان بينه وبين السنتور من عداوة وبغضاء ، وحرب قديمة تدمى لها قلوبهم ، وتقرح نفوسهم ، وأعان هرقل زوجه فاستوت على ظهر السنتور ، وخاض بها الماء وهو يطفر من الفرح ، ويحلم بالمنى والآمال . فما كاد يبلغ الشاطىء الآخر حتى عدا عدواً شديداً ليكون بمنجاة من سهام هرقل . ولكن ديانيرا صرخت صرخة داوية نبهت ماغفل من سمع زوجها ؛ فلما فطن إلى خيانة السنتور ، شد قوسه العظيمة ، وأرسل إلى دبر السنتور سهماً مراشاً كان قد شرب من دم هيدرا حتى ارتوى !

وأحس السنتور بسم الموت يخترم حشاشته ، وبرودة الفناء تشيع في جسمه البدين ، فأقسم ليكيدن لهرقل ، فيذيقه من هذا السم الذي سقى به سهامه ما يودى به . فقال لديانيرا : « أيتها الفتاة ! لا تثق أن حب هرقل دائم لك ، بل أكبر الظن أنه منصرف عنك إلى فتاة أخرى تكون أسبى وأصبى . وما أحسبك إلا ذاكرة كيف كان يتفانى في حب أومفاليه . فخذى قميصي هذا فاحفظيه لديك ، حتى إذا أحسست من زوجك جفوة ، أو رأيت فيه ازوراراً ، فابعثى به إليه ليلبسه ، وألقى في روعه أنه يحفظه من أعدائه . فانه إن فعل ، عاد إليك بقلب مفعم بالحب ، ونفس ملتاعة كلها شوق وتوق . . . » وخر السنتور ميتاً !

وأخذت ديانيرا القميص المضرج بالدماء المسمومة ، وفي نفسها من الهم شيء عظيم ! « من أومفاليه هذه ؟ ! كان يحب أومفاليه ؟ كان يحب فتاة غيرى ؟ وحق زيوس لأسألنه ! هاهوذا قد سبح إلى الشاطىء ! »

ولقيته فسألته ، فاعترف لها بكل شيء ، وطمأنها على محبته وإخلاصه . . . . ولكن قلب المرأة لا يعرف هذا الاستسلام المسول للكلمات الناعمة ! فقد ظل الوسواس يدب في نفس ديانيرا ، حتى كان هرقل في إحدى جولاته ، وكانت هي عند أبيها ملك كاليدون ؛ فطالت غيبته ، وذهبت بها الظنون من أجل ذلك كل مذهب

وذكرت القميص ورددت عبارات السنتور ، فنهضت من توها وأرسلته مع إحدى وصيفاتها (1) إلى هرقل في منآه البعيد . وأوصت الوصيفة أن تذكر له من مآثر القميص ما وسوس به السنتور . فلما لبسه هرقل ، التصق به التصاقاً ، وأخذ السم يشيع في جسمه الحديدى فيذيبه ويفتته . . .

وصرخ البطل بلا جدوى ! وكلما حاول انتزاع القميص كان جلده يتمزق ، ولحمه يتهرأ ، ويتصبب الدم من فوق ومن تحت . . . ثم أخذت نفسه تساقط أنفساً . . . وطفقت روحه تودع هذا الجثمان الهائل في دموع سخينة وآهات حارة . . .

ولفظ نفسه الأخير وهو يبكى ويقول : « فدى لك نفسي . . . يا . . . ديا . . . نيرا ! »

***

« وهوى الى الأرض ما كان من الأرض ، ورفرفت »
« الروح الكبيرة في جهرة من أرواح الآلهة التي أقبلت »
« من الأولمب تزف ابن زيوس العظيم . والكل ضاحك »
« مستبشر أن ألقى أخوهم حمله الثقيل ، وخرج الأولمب »
« جميعاً يستقبل البطل ويهتف باسمه في عليين ! . . . (2) »

***

وحمل الجثمان الطاهر الى جبل أويتا ، حيث دفن في إجلال وإعظام ، وحيث وقفت ديانيرا ترويه بدمعها الغزير ! ...

دريني خشبة

(1) في أحد المصادر أنها أرسلت خادمها الصناع ليخاس

(2) هذه السطور من شللر الألماني . وفي بعض المصادر أن التى أثار الغيرة في قلب ديانيرا ، أنها سمعت أنه عاد الى احدى صويحباته القدامى (ايول) وأنه هام بها . ومع ذلك فلو علمت أن القميص مسموم لما أرسلت به إليه

مجموعات الرسالة

سجل للأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد للخارج ١٥ قرشاً

قلب فتـــاة

للآنسة ابنة الشاطئ

لعلها حنقت عليّ حينما تقدمت إليها في لوعة صامتة ثائرة ورجوتها أن تبكي وأن تسرف في البكاء ؛ ولعلها أنكرت مني أن أفاجئها في وحدتها وقد استكانت إلى أحزانها وأسلمت أفكارها إلى ذلك الفضاء الرحب الواسع الذي تود لو تفر اليه ، وإن كنا نجهل أين مكانه منا وأين السبيل اليه ! لقد كنت أعلم يقيناً أن هذه الكلمات التي اصطلحنا على تسميتها كلمات المواساة ، والتي تعود المرء منا أن يلقيها على مسامع المحزون ، لا تحمل عن هذه المسكينة شيئاً مما ترزح تحته من أعباء ثقال ، وكنت أعتقد أنني إذ كنت لا أملك إلا الوقوف بجانبها أفرض عليها سماع كلمات المواساة المحفوظة ، وأحتم عليها أن تردردها كما تردرد قطع الثلج ، تخير لها أن تظل هكذا في ذهولها وإطراقها ، لعلها واجدة من خداع الخيال ما ينسيها شيئاً من رهبة الحقيقة الواقعة ، ولو إلى فترة قصيرة ! لكني كنت أحبها ، وأتألم لها ، وكان هذا الحب من القوة والعنف ، بحيث يتكر عليّ أن أظل واجمة وهي تكاد تحترق أمامي في صمت ، وأن أقف مكتوفة الأيدي ، بينما أرى ذرات كيانها المضطرب تكاد تتبخر في الفضاء الأثيري المخلخل بعد العاصفة ... آه ! كم كنت أود أن أحترم صمتها ، وأن أتركها في جلستها المفجعة ومكانها المنفرد ؛ ولكني خشيت أن يهدها الحزن المكتوم . وكان لابد لي أن أقول شيئاً ، فلم أجد ما أقوله إلا أن آخذ رأسها بين يدي وألح عليها أن تمعن في البكاء

* * *

لم تكن هذه الفتاة من أولئك الفتيات اللائي يحملن قلوبهن في أكفهن ويخرجن بها إلى الأسواق للبيع أو الاستئجار ، وكان كل من يعرفها لا يكتم إعجابه بذكائها وجاذبيتها وسمو أخلاقها ، ولكنها كانت لا تكترث لشيء من هذا إلا كما يكترث الفني ببضعة مليمات ! كانت تعلم يقيناً أن أثمن شيء لديها ، هو قلبها الحي الكبير ، وكانت تعتز به اعتزاز الانسان بأثمن ما يملكه ؛ وكلما أثنى الناس على ذكائها أو حسنها ، ابتسمت ابتسامة يتجسم فيها عدم الاكتراث ، وتساءلت في نفسها : إذا كان هذا هو مقدار احتفال الناس بتلك الظواهر المادية التافهة ، فكم يكون مدى احتفالهم بالكنز الذي في صدرها ؟ ! ذلك القلب المليء بالحياة ، الشغوف بالتضحية ، النزاع إلى المثل العليا ، والذي يود لو تتاح له الفرصة لاسعاد الآخرين !

ولقد أحببت هذه الفتاة ! أحببت بكل ما في طبيعتها من إسراف وغلو ، وبكل ما في قلبها من قوة وحياة ، وما في نفسها الشعرية من ثورة وحرارة ! وكان حباً نبيلاً تسامى شيئاً فشيئاً حتى تخلص من أدران الماديات ... ولعل الشاب الذي أحبته لم يكن بادئ ذي بدء يفهم معنى ذلك النوع من الحب ، ولكنه أدرك على ممر الأيام أنها قدمت إليه قلباً من ذهب ، وحباً نبيلاً أشبه بالخيال لغرابته وندرته ، فهاله ما قدمت ، وصمم على الاحتفاظ بحبها حتى يضمهما اللحد ، وعلى أن يمهد لها حياة سعيدة ولو كلفه ذلك حياته . واستبد به بعد ذلك حب قوي غلاب جعله يرى الحياة بدونها جحيما لا يطاق ؛ وكان كلما تسامى إليها وتوغل في فهمها ودراستها ، اتضحت له قيمة ذلك الحب الذي لا يعرف الأثرة ولا الاستهتار ، وغمرته لذة روحية تجعله في شبه ذهول ... ذهول الحالمين السعداء

* * *

عرفته في اكتوبر سنة ١٩٣٩ ، وكان لا يزال طالباً بالسنة الأولى باحدى المدارس العليا ، وكان تعارفهما طبيعياً ووليد المصادفة البحتة . فقد نزح والداه من الريف إلى القاهرة ، ليحميا وحيدهما من بلدة المقامرة واللهو والفساد ، واتخذت الأسرة مسكناً متواضعاً في بيت كانت تسكن به أسرة الفتاة ؛ ومرضت الأم مرضاً أقعدها عن مباشرة أعمال أسرتها الصغيرة ، فتطوعت الفتاة لمساعدتها ، لأنها جبلت على حب الخير ؛ ثم كانت ساعة من تلك الساعات التي ينسى المرء فيها نفسه وتقاليده وارادته ، فتقابلت الفتاة المحتجبة الحريصة ، بالفتى الشاب المثقف ، ولم يكن لأحدهما يد في تلك المقابلة . كان ذلك في مساء ليلة ليلاء من ليالي الشتاء القاسية ، وقد آوت الجنوب إلى المضاجع فراراً من ثورة الطبيعة ؛ ولاذ الناس بالبيوت ينشدون الدفء في صمت وسكون . وكان هناك شماع حائل ضئيل ، ينبعث من نافذة الأم المريضة ، ويفنى بعد قليل في جوف الظلام . وقد رقدت المسكينة حين استبدت بها نوبة قاسية أذهلتها عن كل ما حولها ؛ وكان صوت الريح يذهب بأنات الأم العليلة ، فلم يكن يسمعها أحد

سوى الشبح الأبيض الواقف بجانب سريرها ، كأنه ملاك هبط من السماء . كان هـذا شبح الفتاة النبيلة الحنون التي قامت بتمريض الليلة . وفتح الباب فجأة ، ودخل الابن الشاحب المحزون يصحبه الطبيب ، فلم تتمكن الفتاة من الخروج ، فقد كان عليها أن تصغي إلى تعليمات الطبيب ، وأن تشرح له ملاحظاتها عن درجة حرارة الليلة ، وبصاقها وطعامها ، ولم يتمكن الفتى من الخروج ، فقد كان المرض الليلي لأمه ، وكان عليه أن يصغي لما يقوله الطبيب عن سير المرض ؛ وهكذا جمعهما الحزن المشترك ؛ وأنستهما رهبة الموقف ، وشدة تفجعهما للمريضة وابنها ، ما درجت عليه من تحفظ واحتجاب

وكان لابد للفتى بعد أن شفيت أمه أن يشكر تلك الانسانية النبيلة ، وكان لابد لها أن ترد على رسالته ، لتؤكد له أنها ما قامت إلا بواجبها الانساني ، ثم اختفت تلك المراسلات الرسمية ، لتفسح المجال للتراسل الأخوي والتفاهم الروحي ، بين الشاب المعجب بنبل الفتاة ، وبين الفتاة الثائرة الحنان ؛ ووجد كلاهما لذة مبهمة في ذلك النوع من الاخاء والصداقة ، ولذ لهما أن يفرجا عن أنفسهما بالكتابة ، وكلاهما يفهم أخاه ويحيا في بيئة تكاد لا تسمح لهما باستنشاق الهواء

* * *

لم يكن مرض الأم الذي أصابها في شتاء عام ١٩٢٩ والذي كان سبباً لتعارفهما ، إلا نوبة من نوبات مرض صدري يرعى في رئتها ويأتي في سهل على ما احتازته المسكينة من جَلَد واصطبار ، وهاقد تمكنت العلة منها وأصبحت شبحاً هزيلاً يدب إلى القبر ، ويهدي آخر أنفاسه إلى حياتنا العاجلة

وقرر الأطباء أن تبادر الليلة إلى مصحة حلوان . . . وإلا عجل إليها الموت ؛ ولكن كيف ؟ إن الوالد الشيخ لا يملك إلا ما يسد به رمق أسرته الصغيرة ، كان يملك بضعة فدادين في مديرية الشرقية ، وكانت زوجته تملك شيئاً من الحلي ، فبذلا كل ذلك عن طيب خاطر في تعليم وحيدهما ، ولكنه نال شهادة التعليم ليعلقها على جدران الحجرة الحقيرة التي استأجروها أخيراً ليقيموا بها . ثم قبع في كسر داره بجانب أمه العجوز المريضة ، وأبيه الشيخ الفاني ! وإلا فهل يجمع الصبيان في الطرق ليلقي عليهم الدروس ، ويطبق مبادئ روسو وآراء فريدريك هربرت سبنسر مستعملاً (هدايا) فروبل و (جهاز) مدام منتسوري ؟ أم يفتح مدرسة أهلية وقد تراكمت المدارس في أحياء البلاد ، وهو بعد لا يملك ما يشتري به الدواء لأمه المصدورة العليلة ؟

كان مرهف الحس مهذب الوجدان ، وقد عز عليه أن يفقد أبواه ثروتهما في سبيله ، حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجال كان حميلة عليهما . كان يشعر بأنه مسئول عن كل ما أصاب ويصيب والديه ؛ وقد عذبه ذلك الخاطر وأمعن في إيلامه ، فأخذ يبحث عن عمل كل يوم ، ولكن ما الذي يستطيع حامل دبلوم المعلمين العليا أن يعمله ، وهو لا يملك إلا تلك الثروة العلمية المخزونة في دماغه ، لا يدري كيف يستغلها ! ولقد صبر على الجوع حيناً وتحمل الضيق أحياناً ، ولكنه الآن لا يستطيع الصبر ، إذ يرى أمه التي غمرته بالعطف والحنان ، تجود بحياتها مع أنفاسها الخافتة اللاهثة ؛ ويرى أباه يجلس ذاهلاً مطرقاً ، ينظر نظرات حزينة جوفاء إلى تلك الانسانة المخلصة الراقدة ، التي قاسمته حلو العيش ومره ثلاثين عاماً ، غمرته فيها بكل حب وإيثار ؟ !

* * *

وقف الشاب يوماً بين أبويه وقد نفد صبره وعذبه عجزه فرفع يديه إلى السماء في حركة ضارعة مبتهلة ، وتساءل بصوت متهدج حزين :

« أبتاه . ! ألا أستطيع أن أصنع شيئاً لها ؟ حياتي يا أبي ما قيمتها إذا لم تكن لكما وفي سبيلكما ؟ ألا يمكنني فداؤها ؟ » فابتسم الشيخ الحزين بعد أن تحجرت الابتسامة في شفتيه أعواماً ، وقام إلى ولده البار يضمه إلى صدره ، ويغمره بقبلاته ، ثم أسر إليه أن لا وسيلة لانقاذ الأم المعذبة إلا بزواجه من ابنة عمه التي ورثت عن أبيها كثيراً من المال والعقار

طعنة أصابت قلب الفتى فأدمته ! لقد كان مستعداً للتضحية بحياته لأنها ملك له ؛ أما أن يضحي بقلبه وقد وهبه ، وبفتاته وقد وثقت به واطمأنت إليه ، فهذا مالا طاقة له به . . يتزوج ؟ ولمن إذن يترك الفتاة الصغيرة المثقفة ؟ لقد تمكن الحب من قلبيهما ثلاث سنوات ، وكانا من الاعتزاز بهذا الحب بحيث لم يلوثاه بإباحة منكرة ! كانا يخشيان على حبهما وهو الثوب الأبيض الناصع ، أن يلوثه القليل من الغبار ، ولم تعد لهما حيلة في التخلص من سلطان هـذا الحب الذي نما مع الأيام ، فكيف يفرض عليه أبوه ذلك الثمن الغالي ؟ لا . . إنه لن يحطم قلبها ولن يكفر بالنعمة التي منحته إياها . . إنه بشر ولاحتماله حد معقول ؛ وقد أحب بكل قواه ؛ ولئن كان مسئولاً عن سعادة أمه ، فهو

مسئول كذلك عن سعادة فتاته ، فقد منحته الأولى حبها وحنانها لأن عاطفة الأمومة فيها أرادت ذلك ، بينما منحته الثانية حبها منة منها وتفضلاً . . .

لقد يستطيع أن يخنق حبه ويحطم قلبه ، ليشترى بذلك سعادة أمه ، ولكنه لا يستطيع أن يحطم قلب فتاته الصغيرة النبيلة . . .

ولكن الفتاة كانت أقوى منه . . لقد أحبته حباً صادقاً ، والمرأة إذا أحبت فعلت المستحيل فى سبيل سعادة من تحب . . . لقد عجز عن السير فى طريق التضحية الشائك ، فلتحمله هى على كتفيها غير آبهة بالأشواك تمزق ثياب راحتها ، وتسيل دماءها . ولقد أعماه الحب عن الواجب ، فلتفتح بأناملها الرشيقة عينيه ، وتوقظ شهامته ورجولته ، وحسبهما سعادة بعد ذلك إنقاذ الأبوين الكريمين

ولكن كيف تقنعه بوجوب التضحية ؟ حدثتها نفسها أن توهمه أنها تحب غيره ، ولكنها رجعت عن تلك الفكرة الروائية التى فرضها « اسكندر دعاس » على المحبين ، وعز عليها أن تلوث الحب العالى بمثل هذه الأفكار ، وهو آخر ما تبقى لها من سعادة ! وأشفقت على فتاها أن تهدم المثل العليا أمامه فيجزع وربما جحد الفضيلة وأنكر الحياة ! ثم فكرت فى أن توهمه أن أباها يفرض عليها الزواج من غيره ، ولكن هذا لن يفيد فى إيقاظ نخوته وشهامته ، وإذن فلتتقدم اليه فى صراحة وحزم ، لتعلمه أن حبها وقد تنزه عن الماديات ، أضعف من أن يحتمل تبعة موت الأم الحنون ، وجنون الأب الشيخ ، وأنها تحبه إلى الدرجة التى تخشى عليه فيها من فقد احترامها له إذا قتل أمه بأنانيته . إنها تحبه ، ولكن هذا الحب نفسه هو الذى يفرض عليها أن تتنكر له إذا لم يؤد واجبه كرجل وكابن ، فاذا ما سألها عما ستفعله بنفسها بعده ، أجابته فى رفق حازم أن لا شأن له بها ، وأن عليه أن يتزوج من ابنة عمه . . .

لها الله ! ! ما كان أنبلها وهى توصى حبيبها الذى انتزعته الأقدار منها بالرفق بابنة عمه وإسعادها وتمهيد الراحة لها ؟ !

لها الله ! ! ما كان أنبلها وقد وقفت تهمس فى أذنه ألا يحدث أمه عن تضحيته ، وألا يقدم اليها الدواء مسموماً باشعارها أن حياتها أنقذت بهذا الثمن الغالى . . .

ما كان أنبلها وقد وقفت تبعده عنها أشد ما تكون حباً له وشغفاً به ! !

* * *

من يدرى ؟ ! ربما كان هول الموقف قد شغلها عن النظر إلى الأفق البعيد ، حيث تتجمع قطع الظلام وتتصل بعضها ببعض ! وربما كانت تجهل أن انتزاع الكلمات التى جرحت بها الفتى على الزواج من ابنة عمه ، أقسى وأشد إيلاماً من قطع لحمها وهى حية ... ظنت نفسها سعيدة ساعة خضع الفتى لحكمها ، وقامت تودعه وتشد على يده بكلتا يديها وهى تبتسم ابتسامة شاحبة ذاهلة ، حتى إذا ما تركته وتزودت منه بالنظرة الأخيرة ، أحست بالألم يحز فى قلبها ، فهرعت إلىّ – وأنا صديقتها الواحدة – كالمجنونة ، تشكو وتلتمس التشجيع ؛ ثم ركنت إلى الصمت والهدوء ، ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ! وكنت أعلم أن وراء مشيتها الميكانيكية المفجعة ما وراءها ! وأن تلك البسمة الصفراء الباهتة المتحجرة على شفتيها ، تخفى وراءها ناراً ترعى قلب الفتاة المسكينة . كان هدوؤها المصطنع يقتلنى ، وكنت ألمح عن كثب وميض النار تتأجج بين جوانحها وتختفى تحت رماد الحياء والمداراة ، كزبد الأفران العالية ، يبدو سطحه للعين ترابياً أدكن ، حتى إذا انفرج الزبد نرى جمره ! ولم أكن أرجو شيئاً ، إلا أن منّ الله عليها بنعمة البكاء ! !

كان حبها من نار ونور ، فلما حرمت نوره ، رأت أن تحترق بناره فى صمت ! فقد كان عليها أن تظهر للناس بسّامة ضاحكة وإلا ولغت ألسنة السوء فى سمعتها ، ولوثت حبها الطاهر النبيل ، وعبثت بمستقبل الحبيب النائى البعيد !

وكان علىّ أنا ، أن أتغنى بشهامتها ، وأن أؤكد لها أنها ظفرت من الحياة بأوفى نصيب ، حين اشترت بسعادتها سعادة ثلاثة آخرين ! وكانت تنصت لكلماتى أحياناً ثم يغلبها الضعف فتفر إلى حيث تختلى بنفسها لا لتبكى ، فليتها كانت تفعل ، وإنما لتحترق فى صمت !

ولمحتُ عن بُعد شبح العاصفة يقترب فى بطء ، فلازمت الفتاة وأنا أكاد أختنق من الحزن والألم ؛ فلما أعلن أخوها أن فتاها تزوج بابنة عمه ، أرسلت نظرات محمومة مبهمة جوفاء ! وفى بطء حزين ، قامت إلى حجرتها ، فركضت وراءها ، ولم أجد ما أقوله إلا أن أطلب اليها أن تسرف فى البكاء ، فقد هالنى تحجر الدمع فى مقلتيها أشد مما يهولنى الصراخ والنواح وانهمار الدموع ! !

ابنة الشاطئ